العشائر العربية (١)

نظام العشائر معروف في الشرق الأدنى من آجال بعيدة . وقد غدت طرق معاشها الخاصة — التي تبلورت على مرّ القرون لتطابق البيئة التي تعيش فيها — جزءًا ضروريًا حيويًا من الثقافة العامة في تلك الرقعة ووحدة القبيلة — وهي التي ما فتئت تجاور القرى الزراعية والمدن التجارية — نبعت عن وجدان أو عن غير وجدان في علاقاتها مع القرى والمدن بنصيب لا يقلّ في شأنه من ناحية الثقافة المحلية عن النصيب الذي اضطلعت به المدن والقرى .

والعشائر العربية في الشرق الأدنى تؤلف في الآوان الحالي شطراً كبيراً من مجموع السكان ، وهي على أنواع شتى من مدارك الرقي ، فمنها القبائل الرُحَّل ، ومنها العشائر التي استقرّت استقراراً تامًا وبلغت طور اقتصادها الزراعي .

وهذا الشطر من السكان أخذ في السنين الأخيرة — على غير المألوف في التاريخ المديد — يسترعي مزيداً من الاهتمام القومي والوعي الوطني ، ومردّ ذلك الى اليقظة القومية التي شاعت في العالم العربي . فقد حقق معظم البلدان العربية استقلاله فعلاً أو أضحى على قيد خطوات منه . وزعماء العرب يحددون الموارد القومية ، وحكوماتهم تواجه المستقبل بمشروعات بعيدة الأجل لتحسين أحوالها وتعمير مرافقها . ووجهت عناية تذكر إلى العشائر لأنها تعد عاملاً ذا شأن في مثل هذا التنظيم القومي ، ولأنه أصبح من معتقدات الزعماء

(١) هذا بحث طالما نشره باللغة الانجليزية الاستاذ عفيف طنوس الخبير الاقليمي في شؤون الشرق الادنى في وزارة الزراعة الاميركية في مجلة جديدة يصدرها في واشنطن معهد شؤون الشرق الاوسط عنوانها The Middle East Journal وكان الاستاذ طنوس عضواً في البعثة الزراعية الاميركية التي بحثت أحوال العالم العربي في ربيع عام ١٩٤٦ وصيفه

— سواء في داخل الدوائر الحكومية العربية أو في خارجها — أن فكرة « الدولة » في العالم العربي لا يمكن تحقيقها على أساس مستقر دائم إلا اذا أصبح الشطر العشائري جزءاً متكاملاً ومندمجاً اندماجاً تاماً مع سائر الأمة يتقدم معها في طريق الازدهار والرقي.

ومما عزز الرغبة القومية الشديدة في إدماج العشائر بسائر أجزاء الأمة، أن هناك خشية من حدوث تدخل سياسي خارجي. وقد أدرك الزعماء القوميون في بعض البلدان العربية — في صراعهم الطويل المرير للظفر بالاستقلال — أنه مالم تكن العشائر جزءاً لا يتجزأ ومجتمعاً متصلاً اتصالاً وثيقاً بالتنظيم القومي المركزي، فانها كثيراً ما تجنح الى النهوض بدور « الأقليات » وهذه ثغرة ينفذ منها الضغط السياسي والنفوذ الخارجي

وثمة سبب آخر يدعو الى الاهتمام القومي الحالي بشؤون العشائر وهو أن هناك اعتقاداً بأن هذه الطائفة تعد خطراً دائماً يهدد الأمن العام الداخلي. ويقال في هذا الصدد إن منازعات دموية مدمرة قد تنشب بين حين وحين بين العشائر وإن رجال العشائر في مباشرتهم لحقوق الرعي المخولة لهم كثيراً ما يعتدون على الأراضي المخصصة للزراعة فينشأ عن ذلك سفك دم وتدمير ممتلكات.

ويحاجّون بأنه ما دام نظام البداوة باقياً مع ما له من طراز فريد في التنظيم الاجتماعي الاقتصادي، ومع ما لزعماء العشائر من اعتياد على القبض بأيديهم على ناصية القانون، فمن المتعذر على الحكومة المركزية أن تصون الأمن العام صوناً كاملاً.

وهناك علاوة على ذلك اعتبارات ادارية تجعل الحكومات المركزية على وجدان تام بأن العشائر مورد متاعب وقلاقل. فعند فرض الضرائب وجبايتها، وعند إحصاء السكان وعند تطبيق البرامج الصحية والصحية، وعند تنفيذ المشروعات الزراعية، وعند تجنيد الفتيان للتدريب العسكري، كثيراً ما تتبين السلطات أن أعمالها تحبط في ناحية أو أخرى بفعل التنظيم الفطري عند العشائر. فالمشروعات والسياسات والبرامج والخطط التي توضع على نطاق قومي كثيراً ما يكره المسؤولون إما على تعديلها أو على التخلي عنها في المناطق التي تحتلها العشائر. ومن الحقائق المألوفة أنه لا يمكن اجراء احصاء دقيق للبدو الرحل أو لماشيتهم لأنهم — لأسباب شتى — يأبون أن يمتنعوا عن طراعية للاحصاء سواء إحصاء أفرادهم

أو الغائبين وعددهم يزيد أو ينقص تبعاً للغرض الذي يجري الاحصاء له من جباية ضرائب أو تجنيد فيان أو توزيع حرايات سكر . أضف الى ذلك أن على السلطات أن تسير على نوعين من القوانين القضائية : هما قوانين البلاد وقوانين العشائر . والصدام بين هذه وتلك صدام يكاد يكون مستمراً .

وفي طاقة المرء ، بناء على هذه الملاحظات أن يقول إن في العالم العربي اهتماماً شائعاً بشؤون العشائر وقلقاً منها ، وان هذا الاهتمام يتخذ من الناحية العامة شكلاً سلبياً مجمله أن القبائل الرحل تعد مشكلة قومية ، ومستودع قلاقل ، ووحدة متخلفة في مضمار الحضارة تعترض طريق الرقي القومي . ومن الناحية الأخرى ، والى جانب هذا الاتجاه السلبي هناك اتجاه قوي ايجابي من جانب الزعماء والمفكرين يدل على حسن استيعاب المشكلة . فهؤلاء يدركون مقام نظام العشائر في الكيان القومي ، وهم جادون في البحث عن حلول ايجابية لشتى المشكلات التي ينطوي عليها هذا النظام . بيد أنه باستثناء هؤلاء لا يتجاوز اتجاه التفكير العام الاعتقاد بأن القبائل الرحل مشكلة قومية ، وان الحل الوحيد الشامل لها هو « استقرار القبيلة » وهذه عبارة جرت مجرى الأمثال والأقوال الشائعة .

ويتبين من التحري أن هناك إجماعاً على أن استقرار القبيلة معناه تحويل البدو الرحل الذين يعيشون على نتاج ماشيتهم وأغنامهم الى زرّاع مستقرين للتربة . وهناك اتفاق عام كذلك على أن القبيلة ينبغي أن تمدّ بالأرض التي تستقر فيها . وهم يسلمون بأنه متى اتخذ مثل هذا الاجراء ، أمكن حل مشكلة القبيلة . وقد سبق بعض الحكومات العربية البعض الآخر في التفكير في التفصيلات المختلفة للحل المقترح وفي الاستعداد لتطبيقه ، فأنشأ ادارات خاصة تعالج حالة القبائل ، وعُين بعض الاداريين والموظفين الخبيرين بشؤون العشائر ليبذلوا قصارى جهدهم في انجاز مهمتهم .

ولكن المرء يمكنه أن يدرك أن هذه ليست سوى خطوة أولى وان الحاجة ماسة الى الدنوّ من المشكلة بدرسها درساً وافياً مفصلاً ابتغاء حلها حلاً نهائياً . وفي ما يلي محاولة لعرض بعض الآراء بشأن تنظيم العشائر ومقامها ، وتقديم اقتراحات بشأن اندماجها في الكيان العربي .

وأول ما يؤكده الباحث أن القبيلة العربية طائفة موغلة في القدم ذات تهذيب خاص. وتاريخها موصول الحلقات يمتد إدباراً بضعة آلاف من الأعوام إلى العصور الأولى للرقي الانساني. وهذا التاريخ الطويل — وقد انطوى على العيش طبقاً لنظام عجيب من نظم البيئة الطبيعية — أفضى إلى تطور وحدة ثقافية واضحة المعالم لها مظاهرها المتميزة في نواحي الحياة المتباينة. وهذه المظاهر تعين الفرد والجماعة الطرائق التقليدية لمباشرة الاعمال في نطاق النشاط الاقتصادي والديني والعائلي، وفي الترويح عن النفس، وفي الحكم وفي سواها من مجالي العلاقات الانسانية. ونحن — بتعبير آخر — نعالج ضرباً من ضروب التنظيم الانساني له كيانه الكامل ودعائمه المتأصلة. وإذا أردنا أن نفهم أحوالها ونقدر قيمتها وجب أن نعالجها مستعينين على ذلك بوصفها التاريخي.

وينبغي أن يؤكد ثانياً أن النظام العشائري أسدى، وفي طاقته أن يسدي، خدمات أساسية للكيان العربي القومي. ولعل أول مساهمة كبيرة له في هذا الصدد مساهمة ذات صفة بيولوجية مجردة، لأن العشيرة وحدة بيولوجية قوية متنوعة. وقد استطاعت في عصور لا يحصى عددها أن تغالب بنجاح عوامل طبيعية متضادة في بيئة من أعسر البيئات التي واجهت النوع الانساني في تاريخه، وهي بيئة الصحراء، حيث تسدد الشمس أشعتها بغير مرحمة تنضرب بها كل نوع من أنواع الحياة، وحيث يشح الماء ويقل الزرع ويكره كل رجل وكل حيوان على استخدام كل ذرة من الطاقة والحيوية في كفاحه في سبيل البقاء. وقد استطاع الانسان متعاوناً مع قطيع خرافه وقافلة إبله وجاحاً الى الهجرة الدائمة بحثاً عن الماء والمرعى، أن يعيش. وفي وسع المرء أن يشهد هذا الصراع والكفاح في سبيل العيش ماثلاً اليوم، وحسبه أن ينظم رحلة عبر هضبة نجد في المملكة العربية السعودية أو في قفار سوريا أو العراق أو شرق الاردن لينفذ ببصره إلى أوجه التطور الانساني في هذه الرقعة. وفي طاقته كذلك أن يتبين أدلة كافية على أن التطور انطوى على بقاء الأصلح والأقوى والأشد فكيمة.

وفي هذا الصراع، وهو صراع في سبيل البقاء، لم تكتف القبائل بأن تبقي على حياة أفرادها، بل أصابت كذلك نجاحاً في الاكثار من عدد أفرادها بنسبة كبيرة. ومن

الحقائق التاريخية الثابتة أنه بإطراد عدد أفراد هذا النوع البيولوجي القوي المنيع، تحسّن إلى حدّ بعيد نوع السكان الزراعيين القرويين في البلدان العربية. ومن الأمور الجلية في الأوان الحالي بوجه خاص، انتقال سكان أشدّاء أصحاء نسبيًّا من حياة البداوة والترحيل إلى المناطق الزراعية المأهولة ثم المناطق العامرة. ففي سوريا والعراق والجزيرة العربية وسواها من البلدان العربية يستطيع المرء أن يرى معرضاً من مراحل الانتقال المتباينة تبدأ من البداوة الفطرية في ناحية، وتتدرّج إلى القرى الآهلة بالسكان من ناحية أخرى. وما فتئت القبيلة تؤدي خدماتها البيولوجية للعالم العربي.

فالسؤال إذن هو هل تستطيع أي دولة كانت من الدول ذات الشأن أن تتخذ سياسة من شأنها أن تفضي عن وعي أو عن غير وعي إلى تصفية هذا «المورد» البيولوجي القومي الكبير؟

والقبيلة تنهض، هذا الدور البيولوجي، بدور اقتصادي كبير الشأن. فساهمتها في الاقتصاد العام للبلدان كانت أمراً مسلماً به حتى انه كثيراً ما يُغفَل ولا يعنى به عناية جدية عند وضع مشروعات التقدم القومي. ومن التحليل والتحرّي يتضح أن اقتصاد العشيرة هو بغير شك نظام صالح لاستغلال موارد الصحراء الشحيحة. فهي تستخدم بنجاح ولمصلحة الأمة بأسرها، القليل من الحشائش التي تنمو في مناطق شاسعة متباعدة في الصحراء، ومن شأن هذا الجهد أن يسام مساهمة كبيرة في التنظيم الاقتصادي القومي. حتى لقد غدت الماشية في كل من الدول العربية مورداً من أكبر مواردها سواء لاستهلاكها أو لأصدارها. وهناك عدد كبير من ملايين الخراف والماعز وعدد كبير من الماشية والابل يسدّ حاجات الشعب من اللحم وللمنتجات الحليبة وينتج مزيداً من الصوف والشعر والجلد لاصدارها. والواقع أنّ القبائل البدوية الرحّل أو المستقرّة استقراراً جزئيًّا في الصحاري أو في المراعي هي التي تعنى بتربية هذا القدر المطرد من الانتاج الحيواني الكبير الشأن، وهي حين تفعل ذلك تعتمد اعتماداً يكاد يكون كاملاً على الحشائش والنباتات التي تترعرع لهم بها القفار والبيد.

وهذا مورد دائم مرموق من موارد الدخل القومي، ومن المحتمل أن لا يكون له مثيل.

ويلبغي على الأقل أن لا يُعترض طريق هذا الطراز من الاقتصاد العشائري ، أو يُتدخل في أمره بكيفية ما حتى يتسنى تبيان مصدر اقتصادي ملائم يخلفه . وقد يُحاج المرء قائلاً إنه بترقيبة شؤون الري يصبح الاستقرار الزراعي مهنة أربح وأجدى من رعاية الأنعام والتنقل في البيداء . وقد يكون هذا القول صحيحاً ، ولكن صوابه لا يتجلى إلا بعد ما يتحقق تنفيذ مشروعات الري الكبرى على مدى واسع . ويبدو مؤكداً أن نجد دائماً مناطق واسعة من الأرض الشبيهة بالجدبة لا يمكن لماء الري أن يبلغها ، ولا يتسنى نجاح الزراعة الجافة فيها . ففي تلك المناطق يصادف اقتصاد الرعي مكاناً مستطاباً للازدهار ويسدي أيادي اقتصادية بيضاً .

ومن ناحية ثالثة أسدت جماعات العشائر خدمات رئيسية لثقافة العالم العربي الحالية . والثقافة يعني أسلوب الحياة كما ترتضيه وتنهجه طائفة معينة أو مجتمع يختلف اختلافاً بيناً عن طرق المعاش المألوفة بين الجماعات والمجتمعات الأخرى . وتتألف كل ثقافة من منحيين كبيرين هما : المنحى المادي ، والمنحى غير المادي . ويتألف الأول من مجموعة من الآلات والأدوات والأشياء المادية الأخرى التي تستخدمها الجماعة في مطابقة نفسها للبيئة الطبيعية وفي استغلال هذه البيئة .

ويتألف المنحى الثاني من اتجاه سلوكي معين ينظم الجماعة تصريفها للامور مستعينة على ذلك بالأشياء المادية والأساليب المختلفة من أساليب الاتصال الماثلة بين أعضائها وبينها وبين الجماعات الثقافية الأخرى .

والمنحيان على اتصال وتشابك مستمرين . ففي حالة الوحدة البسيطة المتكاملة تكاملاً تاماً — كمجتمع العشيرة مثلاً — يؤلف المنحيان شطراً لا ينفصل عن المجتمع بأسره ؛ وبمعنى آخر نقول أن الثقافة تراث يتميز بأنه انساني ، ينشأ حيثما تتصل الكائنات البشرية على مدى الزمان ، وبوساطته يستطيع المرء أن يحقق مواءمة ناجحة بينه وبين أترابه من الآدميين والبيئة الطبيعية التي تحيط به .

والثقافة ، بعد ما تعرفناها وتفهمنا كنهها ، لا تعد مجال ملكاً خاصاً لفئة المتحضر أو المثقف من المجتمع والمجتمع العشائري هو من ناحية حضارته الخاصة ومن ناحية ما

يحققه بنفسه — كاسلف تبيانه — ماثل لتراث ثقافي ، شأنه في هذا شأن الطوائف القروية أو المتحضرة في العالم العربي . والناحية المادية من هذا التراث هي في الواقع يسيرة جدًّا لا تتجاوز بعض أدوات وآلات وأشياء تستخدم لتلبية الحاجة الانسانية الأولية الى الطعام والمأوى والدفاع عن النفس . ومن ناحية أخرى نرى أن الجانب غير المادّي متقدّم تقدماً عالياً ، ويتألف من وسائل واضحة المعالم للسلوك والتصرف ، وهذه الوسائل تشمل ألواناً شتى من العلاقات تتصل بالدين والأسرة والحكومة والنشاط الاقتصادي والصراع والتعاون والتنظيم العام للمجتمع .

وإنه في هذه الناحية من العلاقات الانسانية غير المادية للثقافة العشائرية ، حيث نجد عناصر أضافت يداً بيضاء الى معنى الثقافة العربية ولونها . وتنطوي هذه على قيم اجتماعية أساسية ، أهمها استقلال الفرد وشهامته ، واحترام الزعامة وتوقير الشيخوخة ، والقرى والكرم ، واحترام الوعد ، ومراعاة حقوق الفرد ، والتعاون المشترك ، والاهتمام بالناحية الشخصية في العلاقات الانسانية ، والوجدان وجداناً اجتماعيًّا والولاء لهذا المجتمع .

وأمكن بفعل زيادة عدد سكان العشائر وباتصالهم الدائم ببقية العالم العربي أن تصبح القيم التي أشرنا اليها وسواها من القيم الثقافية جزءاً من أسلوب المعيشة عند العرب . والواقع أن كثيراً من هذه القيم يدعّم هذه المعيشة ويسبغ عليها لونها ويوجهها الى وجهة الرقي والارتقاء .

ولا نقصد القول إن كيفية معيشة العشيرة هي المصدر الوحيد أو حتى المصدر الكبير لتقدم الثقافي في بلدان الشرق الأدنى المختلفة . فهناك بغير ريب أسس ثقافية أخرى قد تفوق في عدد من هذه البلدان الأسس الثقافية العشائرية . أضف إلى ذلك انه ليست هناك نية ما في أن نوحي للقارىء بأننا نقصد أن نحكم حكماً أخلاقيًّا فنقول انّ العناصر الثقافية للعشائر « جيدة » أو « رديئة » فليس همّنا سوى أن نقرر الواقع .

وفي ضوء هذه الاعتبارات يبدو جليًّا أن المجتمع العشائري لا يمكن أن يعدّ أقلية ثقافية أو مجتمعاً غريبًا دخيلاً على الثقافة المحليّة . فالواقع انه يعدّ شطراً رئيسيًّا حيويًّا من السكان ، وان نشاطه الاقتصادي يعدّ عاملاً كبير الشأن في الاقتصاد القومي ، وان طرق معاشها هي جزء مكمل للثقافة العامة في العالم العربي .

(ترجمة من الانجليزية) وديع فلسطين